فكر

صادق النابلسي **الإمام موسى الصدر رجل الاعتدال**

لم يكتفِ مؤلف «قيام طائفة... أمة موسى الصدر» (شركة المطبوعات للتوزيع والنشر) بوضع مادة تاريخية توثق للنشاط السياسي الذي اضطلع به الصدر منذ استقراره في لبنان حتى تغييبه. أطلعنا على مسالكَ التجديد عنده، ثقافياً وسياسياً ودينياً واجتماعياً

ريتا فرج

في «قيام طائفة... أمة موسى الصدر» (شركة المطبوعات للتوزيع والنشر)، يؤرخ صادق النابلسي لحقبة شهدت تحولات كبرى، لبنانياً وعربياً، مثّل الصدر أحد صانعيها. الكتاب أطروحة دكتوراه في العلوم السياسية قُدمت إلى «الجامعة الإسلامية» في بيروت عام 2011 تحت إشراف المؤرخ أحمد بيضون. من إيران إلى لبنان، يرصد النابلسي مفاصل حياة الإمام موسى الصدر، الباحث دائماً عن الاعتدال والخروج من الأطر التقليدية. كأول معمّم يدخل الجامعات العصرية، جمع بين العلوم الدينية والحديثة وقارب القيم الحضارية الغربية، بحكم ما شهدته إيران آنذاك من تطورات وتفاعلات فكرية بين تيارات سياسية وأحزاب ماركسية وإسلامية وقومية وليبرالية. في مرحلته الإيرانية، عايش في فترة الخمسينيات متغيرات هامّة آلت تدريجاً إلى رسم وجه إيران الجديد. أحاط إحاطة واسعة بالمبادئ التي حكمت الثورات التي قام بها مراجع الحوزة منذ الحركة الدستورية، وصولاً إلى الإمام الخميني حيث كان الصدر واحداً من عشرين هم أصل الثورة الإسلامية. محورية الصدر في حركة الثورة الإيرانية تجلت . كما يذهب بعضهم . في كونه الشخص الذي صنع للثورة حضورها على الساحة اللبنانية والإقليمية. يتحدث الكاتب عن العلاقة بين الإمامين التي فتحت شهية كثيرين، ولا سيما بعد اختطافه عام 1978. تعدّ المحطة النجفية في العراق حلقة وصل ثانية تميزت بطابعها الفكري الثقافي إلى جانب الاهتمام بالسياسة.

يكشف الكاتب عن معطيات أزمة العلاقة بين الصدر وشاه إيران. لاحقته شائعات كثيرة، وخصوصاً بعدما استطاع الافراج عن علماء دين معارضين لنظام الشاه من السجون الإيرانية. واجه الصدر حركة معارضة لمشروعه السياسي في لبنان من قبل أحزاب وشخصيات سياسية ودينية لم تستطع هضم أفكاره التي تبلورت في مسالك تجديدية اصطدمت قليلاً أو كثيراً بالتحديات التي يفرضها الواقع اللبناني.

تمحورت عناصر التجديد الثقافي لدى الصدر حول جملة من قضايا. شغل بإبراز الثقافة الإسلامية والانطلاق بها إلى فضاء الثقافة العالمية. سعى إلى بناء فكر المسلم الشيعي وتكوينه ثقافياً وإيمانياً. تصدى لما يسمى «المرجعية السكوتية» والحوزة الصامتة لابتعادهما عن معترك الحياة السياسية. بيّن أن الإسلام يحمل منظومة فلسفية متكاملة ومنسجمة تُظهر ترابط الإنسان وحركته بالكون. كانت للصدر حساسية ملحوظة تجاه العلمانية التي عبرت عنها أحزاب في الواقع الثقافي والاجتماعي الشيعي، فانصبت جهوده على نقدها ضمن ثلاثة مداخل رئيسة: تنكر العلمانية للدين، وعزل القوانين والأنظمة والحقوق عن القيم، وعلمنة الدولة اللبنانية وإبعادها عن الديمقراطية التعايشية.

مثّلت إشكالية هوية لبنان محوراً أساسياً في انشغالات الصدر الفكرية. فأين وقف في ما يتعلق بفوضى انتماءات اللبنانيين وهوياتهم المركبة وانقسامهم السياسي الطائفي؟ بين تياري الانعزالية المفرطة في نزعة اللبننة لدى أصحاب الأمة المارونية، والعروبة التي تريد لبنان ملتصقاً بالمنطقة العربية، رفض الإمام الاتجاهين السياسيين. رأى أن البيئة الاجتماعية والثقافية اللبنانية لا تتقبّل غربة لبنان وانفصاله عن هذه المنطقة، كما لا تتقبل في الحال عينها، اندماجاً كلياً في المحيط الإسلامي الواسع. انطلق الصدر في فهمه لقضية الأقليات من قاعدة ضرورة تقوية التعايش بين أبناء الطوائف والمذاهب والأديان بصرف النظر عن لعبة الأحجام والديموغرافيا وعقدة الأقلية والأكثرية. حمل خطابه تجاه الأقليات مسلكاً رؤيوياً إذ كان على يقين أن العدو الإسرائيلي عمل وسيعمل على تقوية الكيانات الطائفية لتعزيز وجوده بهدف تقسيم المنطقة على أسس مذهبية. اللافت ما أشار إليه في أحد الحوارات الصحافية حين قال: «قد نجد أنفسنا غداً لنرى إسرائيل قوة سياسية تتفاعل مع المعارضة في كل بلد عربي». نظر الصدر إلى العلاقات الإسلامية المسيحية من زاوية القيم الدينية والإنسانية المشتركة. تضمنت خلاصاته للأديان بعداً اجتهادياً تعزز نظرياً في التشديد على التعايش وتكريس لاهوت التسامح وتقبل الآخر والاندماج معه مع الابتعاد عن تناقضات الهويات الدينية الإلغائية.

حمل خطابه تجاه الأقليات مسلكاً رؤيوياً

في «ألف باء العذابات الشيعية»، أخرج الصدر الشيعة من حافة الكيان اللبناني إلى عمقه بعد نضال طويل مع جماعته. عزز حضورها بعد معاناة من التمييز المناطقي والطبقي والسياسي، وفي المقابل واجه تحديات كثيرة. عمل على مأسسة طائفته في مستويات عدة: الإصلاح السياسي والديني، وتأسيس حركة «المحرومين» و«المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى» وحركة «أمل»، وتأطير الثورية الشيعية المندمجة في المجتمع اللبناني واستنهاضها بالوعي الديني والسياسي.

تبدو الزوايا السياسية في مسيرة الصدر أشد تعقيداً. شهد تاريخه السياسي دينامية لا تستكين. استدرج التناقض اللبناني والإقليمي ملفات معقدة، دخل الإمام في عمقها بدءاً من التعامل مع الطبقة السياسية في لبنان، مروراً بمنظمة التحرير الفلسطينية وما طرحته من إرباك وتمدد أمني بعد اتفاق القاهرة، وصولاً إلى العلاقات اللبنانية السورية وأزماتها المفتوحة. اندلاع الحرب عام 1975 دفع الصدر إلى تكثيف حركته لاخراج لبنان من فم الذئب. طرح مبادرات وأجرى اتصالات ولقاءات بين الأطراف اللبنانية والفلسطينية. لم يكن العنف محكوماً باللاعبين في الداخل، وقع تحت ثقل العوامل الخارجية.

يضيء «قيام طائفة... أمة موسى الصدر» على حيوات الإمام الصدر. ثمة كثافة في المعطيات قدمت لنا الكثير عما نجهله. استفاض المؤلف في التعقيب على الأحداث السياسية. اتخذت معالجاته أحياناً طابعاً انفعالياً، أفقد الأفكار في بعض محطاتها رصانتها وسياقها الحيادي.

ترجمة

ماريو بينيدتي بين خيانتين

في «ربيع بزاوية مكسورة» (1984) التي انتقلت أخيراً إلى لغة الضاد، يغوص الكاتب الأوروغواياني في أعماق أبطاله، حتّى تلاشت الحدود بين السجن والخارج، لتتحوّل الحياة برمّتها إلى معتقل كبير.

رامي طويل

رغم أنّ الفضاء الروائي لـ«ربيع بزاوية مكسورة» (1984) للأورغواياني ماريو بينيدتي (1920-2009) الصادرة باللغة العربية (دار نينوى، دمشق - ترجمة علاء شنانة) يدور حول السجن، وتحديداً السجن السياسي، غير أنّ هواة التصنيف لن يعثروا في هذه الرواية على ما يمكّنهم من تصنيفها تحت خانة أدب السجون. بينيدتي اختار الابتعاد عن وصف عالم السجون، وأساليب التعذيب، التي لطالما أغرت الأدباء، وتحديداً العرب، بمقاربتها ووصفها بدقّة حتى غدت مادّة منفّرة للكثير من القرّاء. ورغم أنّ سانتياغو . بطل بينيدتي . أمضى في سجنه، كمعتقل سياسي، خمس سنوات وشهرين وأربعة أيّام، غير أننا لم نعرف عن تفاصيل حياته داخل السجن سوى ما يفكّر به. وعلى غرار كتاباته، القليلة المترجمة إلى العربية، رغم غزارة إنتاجه وأهميته، لم يبدُ بينيدتي معنياً بتوصيف آلام آنيّة تتشابه لدى كلّ المعتقلين. راح يغوص في أعماق أبطاله، حتّى تلاشت الحدود بين السجن والحياة خارجه، لتتحوّل الحياة برمّتها إلى سجن كبير، حيث آثار الاعتقال لن تقتصر على جسد السجين، بل ستتعدّى ذلك إلى أناس يرسمهم بينيدتي كامتداد لبطله خارج القضبان. هذا الأمر استدعى منه استخدام تقنيات سرديّة متنوعة، وعبر مستويات تعدّدت على عدد شخوصه، مقسّماً روايته إلى مقاطع قصيرة عنونها بعناوين فرعية تحت عناوين رئيسة تكرّرت بما يشبه لازمة موسيقيّة يبتدئ بها كلّ مقطع، لتمضي شخوص الرواية في سرد حكايتها، كلّ منها بصوتها الخاص، ووفق زاوية رؤية مغايرة لما يراه الآخرون. يمضي القارئ متنقّلاً بين السجن والمنافي، من دون أن يغفل بينيدتي دوره كراوٍ يحضر في مقاطع منفصلة ليقصّ حكايات أناس التقاهم مصادفة في منافيهم. ورغم أنّ هذه الحكايات تبدو خارجة عن سياق الرواية، إلّا أنّها أتت بمثابة جسر يصل الحكاية المفترضة بواقع استمدّت منه. ينتقل بينيدتي في «ربيع بزاوية مكسورة» بين أصوات رواته برشاقة. بينما تتسم لغة سانتياغو، وهو يتحدّث من داخل السجن، بالوجدانية والشاعريّة، نجد أنّ لغة زوجته غراثيلا أكثر واقعيّة وجديّة، حتى لتبدو مجرّدة من العاطفة، في قراءة بالغة الدقّة من قبل الراوي للفرق بين الحياة خلف الجدران والحياة خارجها، وإن كانت في المنفى. يقول سانتياغو في إحدى رسائله إلى زوجته: «عندما يكون المرء مضطراً لأن يكون جامداً بدون إمكانية إلا أن يكون كذلك، فمن المذهل الحركة الفكرية التي يمكن أن يمتلكها. بإمكانه توسيع الحاضر كما يحلو له، أو ينطلق نحو المستقبل بسرعة مدهشة، أو العودة للخلف، وهو أكثر الأمور خطراً. لأن الذكريات ترصدنا هناك، كل الذكريات، الجميلة، العادية والبغيضة. هناك هو الحب، أي أنتِ، الوفاءات الكبيرة، وأيضاً الخيانات الكبيرة. هناك ما كان المرء يرغب بعمله، ولم يقم به. وأيضاً ما كان بالإمكان أن لا يعمل وعمله.» وفي مقابل ذلك، تعترف غراثيلا لصديقتها: «المشكلة بأنّ الانفصال القسري جعل منه شخصاً حنوناً أكثر. وفي المقابل أنا أكثر قسوة. لأقول لك بكلمات بسيطة. مع الوقت أشعر أني بحاجة أقل له»، إذاً فبينيدتي يلاحق التغيرات النفسية التي أصابت شخوصه جرّاء حضور السجن في حياتهم كواقع. وبينما يزداد السجين ارتباطاً بذاكرته وبالأشخاص الذين تركهم وراءه (زوجته، ابنته، والده، صديقه) فإنّ زوجته تعيش ازدواجيّة عاطفيّة بين ارتباطها به، والحياة التي عليها أن تمضيها وحيدةً، وبالتالي تشعر بالابتعاد عنه، والانجذاب إلى صديقه المقرّب إليهما. العلاقة المتطوّرة بهدوء مدروس بين غراثيلا ورونالدو تنتفي عنها صفة الخيانة حين يسرد بينيدتي تفاصيلها بحرفيّة، دون الوقوع في مطبّ الميلودراما. أسئلة قديمة متجدّدة يخوض فيها بينيدتي في هذه الرواية. أسئلة تتعلّق بالحرية، والإنسان، والمنفى، والسجن، والربيع (ما قبل الربيع العربي بكثير)، الربيع الذي سعى إليه سانتياغو، ودفع ثمن سعيه من دون أن يفقد الثقة به، رغم أنّه ربيع بزاوية مكسورة كما يقول.

أمام هذه الرواية، لا بد من الوقوف عند ملاحظتين مهمتين: الأولى تتعلّق بمترجم العمل الذي كان أميناً على المفردة، لكنّه كان خائناً للرواية، فجاءت ترجمته ركيكة أفقدت النصّ روحه الأصليّة. وهنا تستوقفنا الملاحظة الثانية التي أضافت إلى خيانة المترجم خيانة من نوع آخر يتحمّل مسؤوليتها الناشر، وهي الأخطاء النحويّة والمطبعية التي غصّت بها الرواية. وهنا سيفقد الناشر ما كان يمكن أن يحسب له باختياره لهذه الرواية لنقلها إلى لغة الضاد، ليغدو متّهماً مع المترجم بارتكاب جريمة بحقّ رواية يستحقّ قارئ العربيّة أن يطّلع عليها بشروط أفضل بكثير.

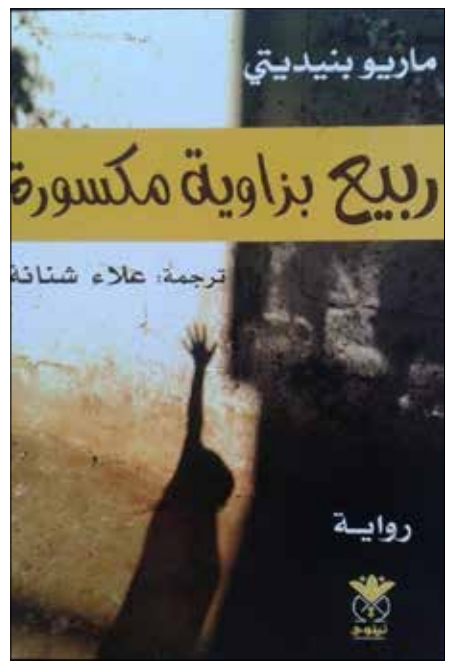

أسئلة الحرية، والإنسان، والمنفى، والربيع